مجلة الدراسات الأمازيغية، العدد 2، 2018، ص. 29-44

المعرفة والسلطة في السياق الكولونيالي بالمغرب والجزائر

الحسين بويعقوبي

جامعة ابن زهر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير

تروم هذه الدراسة أساسا البحث في جدلية المعرفة والسلطة في السياق الكولونيالي بشمال إفريقيا، خاصة في المغرب والجزائر من خلال تتبع سيرورة تطور إنتاج المعرفة حول الأمازيغ، وكيف أُنتُقِل من معرفة ذات طبيعة انطباعية، بوصفها زمنا أولا، إلى معرفة علمية استثمرت في خدمة الإدارة الفرنسية، زمنا ثانيا، مع أخذ الاستشراق بعين الاعتبار إطارا ايديوليوجيا يؤطر المعرفة المنتجة بين الزمنين. تمتد هذه الدراسة من ما قبل بداية احتلال الجزائر ابتداء من سنة 1830 إلى سنة 1962، تاريخ استقلالها. فخلال أكثر من قرنين كان الأمازيغ، بوصفهم أهم المكونات البشرية في شمال إفريقيا، موضوع إنتاج معرفي مكثَّف قام به أشخاص من مشارب مختلفة، وسنُبينُ كيف تحكمت السياقات التاريخية والإيديولوجية المختلفة في مضمون هذه المعرفة وأهدافها.

سنعتمد في دراستنا هذه على الكتابات الصادرة عن الفرنسيين، خاصة خلال القرنين التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، مع الاستعانة ببعض المعلومات الواردة في وثائق الأرشيف الفرنسي المتعلق بهذه الفترة الموجود أساسا بمدينتي نانت وفانسان. ولتحليل هذه الإشكالية التي نسعى من خلالها المساهمة في إعادة قراءة تاريخ هذه المنطقة، وخاصة ما يتعلق بموضوع الأمازيغ والأمازيغية، سنقسم دراستنا إلى محاور ثلاثة؛ يتناول أولها البحث في زمن إنتاج المعرفة الانطباعية عن الأمازيغ قبل الاحتكاك المباشر معهم. في حين سنركز في المحور الثاني على الفترة الاستعمارية، وكيف أصبح الأمازيغ موضوعا للبحث العلمي المؤطر أكاديميا، ثم يأتي المحور الثالث لوضع المرحلتين في سياقهما المعرفي والايديولوجي من خلال دراسة مسلسل "شرقنة" شمال إفريقيا وسكانها وجعلهم جزءا من الدراسات الاستشراقية.

أولا: زمن المعرفة الانطباعية

إذا كانت معرفة الأوروبيين محدودة بشمال إفريقيا، فإنهم لم يكونوا يجهلون كل شيء عن هذه المنطقة وسكانها قبل احتلال فرنسا الجزائر. فكتابات هيرودوت (424-484 قبل الميلاد) والتواجد الروماني بالمنطقة لمدة 6 قرون ابتداء من القرن الثاني قبل الميلاد، إضافة لقربها الجغرافي من أوروبا والصراع الإسلامي- المسيحي لمدة قرون خاصة مع الإمبراطورية العثمانية التي امتدت على ضفتي البحر الأبيض المتوسط، ثم الغارات البرتغالية في القرن 16 واحتلالها لبعض الثغور المغربية، جعل هذا المجال موضوع إنتاج لمعرفة تختلف حسب مؤلفيها وحسب السياقات التاريخية. فمند القرن 11 ظهرت في أوروبا كتابات تصف شمال إفريقيا، من جهة كجزء من العالم الإسلامي، ومن جهة أخرى كفضاء شاسع وغرائبي يسمى "الشرق" في إطار السعي لاكتشاف ومعرفة الشعوب الأخرى المختلفة عن الأوروبيين. حسب دراسة لدونيس ابراهيمي تعززت هذه الكتابات خصوصا بعد القرن 17 حيث بدأت المنطقة تسمى في هذه الكتابات ب "لا بيربيري"، أو "ممالك فاس والمغرب"، أو "مملكة الجزائر" (Brahimi, 1978). وبدأت أولى المعطيات تظهر عن الأمازيغ من خلال كتابات الرحالة، والديبلوماسيين، والتجار والمبشرين، والأطباء، والأسرى؛ حيث بدؤوا في وضع اللبنات الأولى لما سيسميه شارل روبير أجرون "الأسطورة القبائلية" فسعى المخيال الأوروبي للبحث عما يمكن أن نسميه بالخصائص الأمازيغية وما يميز هذا الشعب عن غيره.

لقد بدأ ظهور الأمازيغ في كتابات الرحالة بحكم الحس المغامر لهؤلاء، والذي يسمح لهم بالتوغل في المناطق النائية والجبلية حيث تهيمن الأمازيغية لغة وثقافة، وتبدو للعيان أكثر من الحواضر. وهنا يذكر المؤرخ شارل روبير أجرون اسم أبي راينال الذي كتب منذ 1826 عن خصائص القبائليين في كتاب وسمه ب"التاريخ الفلسفي لإفريقيا الشمالية" (Ageron،1968). وفي السياق نفسه تحدث الطبيب الرحالة بايسونيل عن القبائليين كأحد مكونات ساكنة الجزائر. وقام الكابيتان دوجيني كاريت بدراسة حول منطقة القبائل.

لقد ساهمت هذه الكتابات الأولى في نشر أولى المعارف عن الأمازيغ، وقدمتهم ضمن ساكنة الجبل، وأنهم فقراء، وذو قامة طويلة، وعيون زرق، وشعر أصفر، ويحبون الحرية، ويمارسون إسلاما سطحيا، ولهم مؤسسات ديمقراطية.... وانطلاقا من بشرتهم فهم ينحدرون من الوندال، أي من أصول أوروبية. وقبيل احتلال مدينة الجزائر، ساهمت دراسة المستشرق فونتيردوبارادي والذي زار الجزائر أواخر القرن 18 في التعريف ببعض خصائص اللغة القبائلية. في نفس الفترة، وبالضبط أواخر سنة 1791، سيزور الرحالة البولوني الأصل، ومن رعايا روسيا بوتوشكي، المغرب لملاقاة السلطان في مهمة ديبلوماسية. في انتظار الموعد استغل الرحالة الفرصة لزيارة بعض المناطق ونشر في مؤلفه بعض المعطيات عن الأمازيغ (Potocki,1997). ومن خلال المؤلف، استعمل الكاتب عدة أسماء لتسمية الأمازيغ مثل "مور"، و"شيلوش"، و"شيلاحا"، و"بربيي"، و"برابر"، و"بيربير"،

و"أمازيك" و"الجبليون" مع التنصيص على أن الإسم الأصلي الذي يرتضيه هؤلاء هو: "أمازيغ". وانتبه منذ ذلك الوقت لوجود أربعة تنويعات لغوية في الأمازيغية، وفي نفس الوقت عدَّهم من سكان الجبال الذين يتحدثون لهجة عربية مختلفة عن لهجة الرّحل. وليس بوتوشكي الوحيد الذي وصف الأمازيغ بالعرب بل بعد 12 سنة من رحلته، سيأتي علي باي العباسي سنة 1803 ليسمي أمازيغ نواحي مراكش ب"عرب الجبال"، ويصفهم بكونهم "قصيري القامة وضعاف البنية، ولونهم بني تحث تأثير الشمس، ويعرفون باسم "بريب"، ويشكلون أمة متميزة" (AL Abbassi, 2008, 131). وبين 1824 و1827 سيزور الرحالة الفرنسي غوني كايي المغرب انطلاقا من تافيلالت إلى طنجة، وذلك بعد عودته إلى فرنسا من رحلة شاقة قادته إلى تومبوكتو. وقد خصص الفصل الأخير من كتابه لوصف المغرب وسكانه وخصّ الأمازيغ بجزء من هذا الوصف (Caillé,1985).

من خلال هذه النماذج لرحالة من مشارب مختلفة زاروا أجزاء من شمال إفريقيا، وخاصة المغرب والجزائر، قبل بداية التوسع الكولونيالي، وفي سياق أمني يصعب فيه التجوال لغير المسلمين، خاصة في المناطق الداخلية والبعيدة عن الحواضر الكبرى، تتضح الظروف العامة التي دُونت فيها المعطيات الأولى عن الأمازيغ، وهي عبارة عن معلومات كتبت عن الآخر، المختلف لغويا وثقافيا ودينيا، وفي جو مشحون بالخوف والهلع من هذا الآخر "الغريب". وهو ما تؤكده العديد من المآسي التي تعرض لها هؤلاء الرحالة التي أدت ببعضهم إلى أن يلقى حتفه. كانت كتابات هؤلاء الرحالة تلقى صيتا كبيرا لدى دور النشر في أوروبا، وساهمت إلى جانب التقارير الرسمية، وترجمة الكتب العربية في بداية تشكل صورة الأمازيغ في المخيال الغربي وخاصة الفرنسي. فهي ليست بتمثلات حديثة مرتبطة بسياق أواخر القرن 18 والقرن 19، بل تشكلت عبر صيرورة تاريخية طويلة، اختلط فيها الواقعي بالمتخيل، مما جعلها تلصق بالأمازيغ الشيء ونقيضه، من أوصاف ايجابية مثل الشجاعة والإخلاص وحب الحرية، ومؤسسات ديمقراطية، إلى أبشع الأوصاف السلبية كالهمجية والبخل وكراهية الأجنبي. وهو ما سيترسّخ مستقبلا طيلة ما يقارب قرن ونصف من الاحتلال الفرنسي لشمال إفريقيا.

إلى جانب المعلومات الواردة في كتابات من زار شمال افريقيا، ومن أجل التعرف أكثر على هذا المجال الجغرافي القريب من أوروبا، وغير المعروف بما فيه الكفاية، استعان الأوروبيون بترجمة أمهات الكتب العربية التي تصف المنطقة كرحلات ابن بطوطة (1377-1304). في هذا الإطار تمت ترجمة "وصف إفريقيا" لمحمد حسن الوزان (المعروف بليون الافريقي)[1] سنة 1556 وفي سنة 185

[1] Son nom est Hassan Al WAZZAN AL ZYYANI. Il est né à Grenade en 1483 et a fait ses études à Fès. Grand voyageur, il a visité le Soudan puis le Caire avant d'arriver à la Mecque. Il a traversé le Sahara pour aller à Tombouctou en 1512. Il a été forcé de se convertir au catholicisme et fut baptisé par le pape LÉON X (Jéan-

ؤلاءلتيبس4 ترجم دوسلان، فرنسي من أصل هولندي، كتاب ابن خلدون "تاريخ الأمازيغ". وتمت ترجمة المقدمة سنة 1858 قبل أن يترجم الفصل الخاص بتاريخ الأمازيغ في كتاب "العبر" سنة 1867. من خلال هذه التراجم بدأت أولى التمثلات تتشكل عن الأمازيغ. فقد سبق لابن خلدون أن قدمهم في صورة "مجدين وأقوياء ومقاومين وبسطاء ومبدعين وشديدي الكره، وغير منضبطين، وفي نفس الوقت مرحين" (Planty, 1952, 192). كما وصفهم في سياق آخر بكونهم "أمة عظيمة مثلهم مثل العرب والفرس والإغريق والرومان"؛ هذه الأوصاف التي لا تخلوا من الطابع الأسطوري هي التي فتحت شهية الفرنسيين للبحث عن المزيد من المعرفة حول هذا الشعب.

أما بخصوص المغرب فتواجد فرنسا بمقربة من حدوده منذ 1830 جعله محط أنظارها فتعددت الدراسات والأبحاث حوله في أفق ضمه للإمبراطورية الكولونيالية الفرنسية. ابتداء من 1847 كلفت الإدارة الفرنسية أوكيست بوميي الذي كان يشتغل مترجما في عدد من المدن المغربية كالصويرة وطنجة والرباط بإعداد تقارير عن المغرب، ونفس العمل قام به أيضا أوكيست موليراس عن الحدود المغربية الجزائرية، وعن أمازيغ الريف (Mouliéras,1895). وعليه، فنظرة الفرنسيين للأمازيغ والتصورات المنتجة عنهم تشكلت عبر سيرورة تاريخية طويلة دامت قرونا وتأثرت بمختلف السياقات التاريخية.

وإلى جانب كتابات الرحالة ودور الترجمة، تشكل الكتابات الصادرة عن الديبلوماسيين سواء كانت تقارير رسمية أو رحلات أو سير ذاتية مصدرا مهما للمعلومات عن سكان ومجال المناطق التي عينوا فيها. وإذا كانت العلاقات مع اسبانيا والبرتغال طيلة القرن16 قد اتسمت بالحيطة والحذر، بل وبالصراع نتيجة رغبة الدولتين في الهيمنة على الملاحة البحرية بالمنطقة، وهو ما جعلها مثار انتباه الأوروبيين، فإن العلاقات مع انكلترا وهولندا كانت أكثر ديبلوماسية للحصول على امتيازات تجارية وتحرير أسراها الذين كانت كتاباتهم أيضا مصدرا مهما للمعلومة. أما بالنسبة للعلاقات مع فرنسا فبدايتها تعود رسميا للقرن 16 حين زار تاجر ورحالة فرنسي المغرب سنة 1531-1532 ونشر كتابا حول زيارته لمملكة فاس ركز فيه على غنى هذا البلد فتكاثرت الرحلات والمهام الديبلوماسية. وبدأ ملوك فرنسا في تعيين قناصل لهم بالمغرب وكان موضوع الأسرى الفرنسيين حاضرا في كل المفاوضات لدرجة أن اسم المغرب وصورته في فرنسا ارتبطا بهذا الموضوع الذي يصفه شارل بينز ب"المأساة الإنسانية" (Pinz,1944). ويتم حله غالبا بالطرق الديبلوماسية، رغبة في الحفاظ على علاقات جيدة مع المغرب الذي كان يظهر للأوروبيين في صورة البلد القوي، وهي الصورة التي تعززت بعد فوزه في معركة وادي المخازن سنة 1578 وفي نفس الوقت يتم تصويره في كتابات

Léon de Médicis) et depuis il porte le prénom de Jean-Léon. Revenu à Tunis, il reprend la religion musulmane et meurt en 1554.

الأسرى المسيحيين بلدا متوحشا، وسكانه متطرفون دينيا ويكرهون المسيحيين. ظل المغرب متحصنا خلف هذه الصورة، وظلت الجزائر تابعة للإمبراطورية العثمانية القوية منذ سنة 1550 إلى أن ضعفت وسقطت الجزائر بيد الفرنسيين سنة 1830 وفي سنة 1840 انهزم المغرب في معركة إيسلي فانكشف ضعفه وبدأت الصورة الموروثة عن انتصار معركة وادي المخازن تسقط فبدأ التفكير في إمكانية احتلاله.

ثانيا: زمن المعرفة العلمية أو العلم في خدمة الهيمنة الاستعمارية

بعد قرون من إنتاج معرفة انطباعية عن الأمازيغ في كتابات المؤرخين العرب في شكل فرشات متراكمة بعضها على بعض، والتي تم تكريسها في كتابات الرحالة الأجانب، قبيل احتلال فرنسا لشمال إفريقيا، من خلال إعادة إنتاج نفس الصور النمطية، ستبدأ مرحلة جديدة في إنتاج المعرفة عن الأمازيغ بعد دخول فرنسا الجزائر، وبداية الاحتكاك المباشر مع سكانها. فلم تعد المعرفة تأتي من الكتب بل من الميدان، بدءا بالمدن الكبرى المؤمنة، وانتهاء بالمناطق النائية على خطورتها، وما يفرضه كل ذلك من استراتيجيات لفرض الهيمنة الكولونيالية، فوضعت الإدارة الفرنسية إمكانات مهمة، مادية ومؤسساتية، سواء في المغرب أو الجزائر، لدعم البحث العلمي.

ستتميز هذه المرحلة باستمرار فرنسا في نهج بدأته منذ حملتها على مصر سنتي 1798 و1801من خلال مرافقة نابوليون بونابارت ل 167 شخصية من رجال المعرفة والعلم ينتمون لمختلف المشارب، الذين كلفهم بالقيام بأبحاث معمقة حول مختلف جوانب تاريخ وثقافة مصر، وهو العمل الذي أعطى ما يعرف ب "معهد مصر" الذي نشر كتابا مهما عنونه ب "وصف مصر". نفس الشيء قامت به فرنسا في جزر الموري سنة 1829 قبل أن تحل بالجزائر ابتداء من 1830 لتحس بصعوبة استعمار هذا البلد الشاسع بدون معرفة علمية لمجاله وسكانه. ولذلك، وابتداء من 1840، وضعت مخططا للبحث العلمي سمته "الاستكشاف العلمي للجزائر" خصصت له إمكانات بشرية، ومادية مهمة. وقد تمخض عنه بعد نشر أعماله (37 جزءا)، تمت فيها دراسة أهم المجالات المرتبطة بالتاريخ والجغرافيا والأركيولوجيا والدين واللسانيات...

في خضم هذا العمل العلمي الجبار سيكون الأمازيغ، بوصفهم من أهم المكونات البشرية في المنطقة، وذو خصوصيات لغوية وثقافية موضوعا للبحث العلمي. وستظهر أولى الكتابات التي يمكن وصفها بالأكاديمية مع خلط واضح بين العسكري والعلمي، حيث أن جزءا مهما من المعطيات عن الأمازيغ سنجده في وثائق مبعثرة بين أدوات الحرب والقتال. وهو ما نتج عنه ما يعرف ب"الإثنولوجية العسكرية". في هذا الإطار تندرج الدراسة المهمة التي قام بها الجينيرالان هانوتو ولوتورنو عن الأعراف الأمازيغية بالقبائل سنة 1872. وعموما يمكن تقسيم هذه الدراسات إلى نوعين: الدراسات الفردية المقامة في إطار اهتمامات شخصية وبدون دعم مؤسساتي، ثم

الدراسات المنجزة ضمن برنامج مؤسسة علمية رسمية أنشأت لهذا الغرض. من محصول هذا العمل حسب دراسة لفرانسوا ليمدورفر ما يقارب 400 أطروحة أنجزت ما بين 1880 و 1962 (Leimdorfer, 1993).

هذا الإنتاج العلمي، لا يمكن فصله عن السياق التاريخي العام الذي جاء فيه، والمتميز بخاصيتين أساسيتين : فمن جهة هناك إرهاصات ميلاد العلوم الإنسانية والاجتماعية في أوروبا والتي لازالت تبحث عن هوية هذه العلوم التي تريد أن تجعل من الإنسان موضوعا للدراسة، ومن جهة أخرى تزامن هذا البحث والتوسع الكولونيالي خارج أوروبا، واكتشاف شعوب وثقافات جديدة. هاتان الخاصيتان، اللتان تبدوان بمنزلة وجهين لعملة واحدة، ستؤثران في طبيعة المعرفة المنتجة عن الأمازيغ والأهداف المتوخاة منها. فمنذ البدء سيظهر مفهوم "العرق"، كمفهوم أساسي في الدراسات الاثنولوجية آنذاك لتمييز المجموعات البشرية. ولذلك تم توجيه الدراسات نحو البحث عن الخصوصيات "العرقية" للأمازيغ، وهو ديدن الأنثربولوجية الفيزيائية. وقد تعزز هذا التوجه بعد تأسيس "الجمعية الأنثروبولوجية لباريس ونشرتها المعروفة ابتداء من 1859 مع الباحثين الجينيرال ليون فيدهيرب[2]، والإثنولوجي بول توبينار[3]. وشيئا فشيئا بدأ المخيال الفرنسي يشكل ثنائية العرب، والأمازيغ كعرقين متميزين على مستويات عدة. أكيد أن المؤرخين العرب منذ قرون تحدثوا عن وجود عرب وأمازيغ، لكن دون البحث عن الخصائص العرقية والثقافية لكل منهما. فخصوصية الأبحاث الفرنسية تتمثل في هذا البحث المضني للتمييز بين الإثنين بشكل يقدم الناطقين بالأمازيغية كأبناء السكان الأصليين، حفدة الكاهنة وماسينيسا من أصول أوروبية وخصوصيات عرقية في مواجهة الناطقين بالعربية باعتبارهم أبناء الغزاة العرب، القادمين من الشرق مع عقبة بن نافع وموسى بن نصير منذ القرن السابع (Bel et Eisenbeth, 1937). وإلى جانب تمييز العرب عن الأمازيغ كثنائية أساسية في الخطاب الكولونيالي، سيتم أيضا تقسيم الأمازيغ أنفسهم إلى مجموعات كبرى كما سيتم البحث عن خصوصيات كل مجموعة.

---

[2] كان الجنيرال FAIDHERBE (L) نائب رئيس جمعية الانثربولوجيا la Société d'Anthropologie وواحدا من المتخصصين في افريقيا الشمالية وجنوب الصحراء. وهو صاحب أعمال منها :
« Etudes sur la langue berbère » (1862), d'une étude linguistique intitulée *Le Zenaga des tribus sénégalaises : contribution à l'étude de la langue berbère*, publiée par l'École des Langues Orientales (1877), « Recherches anthropologiques sur les tombeaux mégalithiques de Roknia » (Algérie, 1869), *Collection complète des Inscriptions numidiques (libyques) avec des aperçus ethnographiques sur les Numides*, Lille (1870), *Les dolmens d'Afrique*, Paris, E. Leroux, 1873. En collaboration avec Paul TOPINARD, il publie *Instructions sur l'anthropologie de l'Algérie*, paris, Typographie A. Hennuyer, 1874 etc.

[3] طبيب وانثربولوجي فرنسي، تلميذ Paul BROCA انتخب عضو جمعية الانثربولوجيا لباريس بتاريخ 19 يوليوز 1860. نشر سنة 1861كتابه La population indigène de Beskra.

في خضم هذه الدراسات الموسومة أساسا بالرغبة في التمييز والتصنيف والترتيب، بناء على معايير مختلفة كاللغة واللون والدين ومجال العيش ونمط الحياة، ستظهر ضرورة إعطاء تسمية معينة لهذه لمجموعات البشرية المختلفة عن العرب والمتفرقة على مجموع التراب الشمل إفريقي. فالتسمية هي أولى الخطوات في التصنيف، ولذلك يلجأ إليها المهيمن قبل فرض سيطرته. وغالبا ما تكون التسمية المعطاة قدحية، بعد إقصاء الاسم الأصلي الذي ترتضيه المجموعات البشرية لنفسها. في هذا الاتجاه سيترك اسم "ايمازيغن" جانبا رغم الاعتراف بوجوده، وسيفرض اسم "ليبيربير" كاسم شامل لكل المجموعات البشرية المستعملة للغة الأمازيغية. وهذا ما عبر عنه ايرنيست رونان سنة 1873 حين قال "أن اسم "ليبيربير"، هو المناسب لتسمية كل هذه المجموعات البشرية المتعددة"(Renan, 1873, 157-138). ونفس الفكرة أكدها فيديرب (Faidherbe, 1874, 608). أما ألفريد بيل، وموريس ايزانبيت فقد بينا بوضوح سياق استعمال تسمية "ليبيربير"، بالقول: "الأكيد أننا نطلق اسم "ليبيربير" على مجموعات بشرية وإثنية مختلفة، رغم تشابهها على مستوى اللغة والتقاليد".

إلى جانب الدراسات العديدة التي قام بها الأفراد أسست الإدارة الفرنسية مؤسسات جامعية لنفس الغرض ووفرت لها إمكانات مهمة. فأصبح بذلك البحث العلمي مجالا للتنافس بين الأفراد وللترقية الاجتماعية، تتجاذبه تيارات مختلفة وأحيانا متضادة. ولذلك فالمعرفة المنتجة عن الأمازيغ، في السياق الكولونيالي، كانت تتجاذبها التيارات السياسية المتصارعة حول سبل الظفر بتطبيق سياستها في كل استراتيجية للهيمنة على مختلف بلدان شمال افريقيا. في هذا السياق، لم تتمكن الدراسات الأمازيغية من أن تتشكل ك"حقل معرفي" مستقل. بل ظلت طوال الفترة الكولونيالية جزءا من حقل أوسع يعرف ب"الدراسات الإستشراقية"، أو"الدراسات الكولونيالية"، وداخلها تطورت الدراسات الأمازيغية تخصصا فرنسيا إلى جانب الدراسات المهتمة بالعربية والإسلام المغاربي.

بعد بضع سنوات من احتلالها لأجزاء من الجزائر، وابتداء من 1850، أحست فرنسا بالحاجة لمدارس لتكوين أطرها الإدارية ولجامعات من أجل البحث العلمي، فأسست "مدرسة الجزائر العاصمة" كنواة أولى للمؤسسات الجامعية بهذا البلد. وفي فرنسا استمر النقاش والبحث داخل "لجنة إفريقيا الفرنسية"، وهي قريبة من الحزب الكولونيالي، تمخض عنها تأسيس "لجينة المغرب" سنة 1903. وتكلفت ببداية القيام بدراسات حول المغرب، في أفق ضمه للإمبراطورية الكولونيالية الفرنسية، بعد ضم تونس سنة 1881. وبذلك أصبح المغرب موضوع صراع بين مجموعة باريس ومجموعة الجزائر إلى جانب الباحثين المستقلين. وبعد صراع مرير بين مختلف الأطراف، تأسست سنة 1903 "البعثة العلمية لطنجة"(Burke, 1978, 56-37) بزعامة ألفريد لوشاتوليي، وميشو بيلير. وكانت أول مؤسسة رسمية فرنسية تعنى بالبحث العلمي بالمغرب. واستمر عملها إلى سنة

1920. بعد حلها ظهرت عدة لجن، كل منها يهتم بمجال معين (السوسيولوجيا أو التاريخ أو الأركيولوجية...)، وسيتم تجميعها فيما بعد سنة 1924 داخل مؤسسة علمية واحدة، تحمل اسم "معهد الدراسات العليا المغربية"، والذي سيصبح بعد استقلال المغرب جامعة محمد الخامس. كما أسس الجنيرل ليوطي بالرباط "لجنة الدراسات الأمازيغية" منذ 1913.

يمكن القول إذن أنه بعد تجربة الجزائر منذ 1830 وطوال 44 سنة من التواجد الفرنسي بالمغرب منذ 1912، كان الأمازيغ على وجه الخصوص موضوع إنتاج معرفة غزيرة في كل الميادين؛ أنتجت من طرف إما الضباط العسكريون، أو موظفي إدارة الشؤون الأهلية، أو المبشرين أو الباحثين الأكاديميين. ويتم نشر أعمالهم إما في شكل كتب، أو مقالات في مجلات أعدت لهذا الغرض، منها : "الأرشيفات المغربية"، "الأرشيفات البربرية"، "مدن وقبائل المغرب"، أو "مجلة العالم الإسلامي" ثم "هسبيريس".

ثالثا : اللغة والقوانين العرفية الأمازيغية : مجالات مفضلة

تحتل اللغة الأمازيغية إلى جانب القوانين العرفية مكانة متميزة في الدراسات الكولونيالية عن الأمازيغ. ففي إطار البحث عن ما يشكل تميزهم، تفرض اللغة نفسها كعنصر أساس يميز الأمازيغ عن العرب، تليها القوانين العرفية المختلفة عن الشريعة الإسلامية.

أ. اللغة الأمازيغية

لقد تحدث محمد حسن الوزان المعروف بليون الافريقي منذ القرن 16 عن الأمازيغ، واستعمالهم للغة واحدة تحمل اسم "أوال أمازيغ". هذا المعطى المهم حول لغة لم تكن بعد موضوعا للبحث العلمي، وإن كنا لا ندري ماذا يقصد به حقيقة، والمجال الجغرافي المعني بالضبط، سيؤكده الفرنسيون، بناء على دراسات لسانية متقدمة، بعد سيطرتهم على أجزاء مهمة من شمال إفريقيا، وتنقلهم بين مختلف المناطق المستعمرة. ولأنَّ اللغة مدخل أساسي لفهم الشعوب وضبطها وأهم الوسائل للتواصل معها وكسب ودها، فقد كانت اللهجات الأمازيغية محل اهتمام الباحثين الفرنسيين حتى قبل نزولهم على أرض شمال إفريقيا. فأثناء زيارته للجزائر سنة 1787/88 أثارت هذه اللغة (القبائلية) اهتمام المستشرق الفرنسي فونتير دوبارادي، الذي دون جزءا من معجمها وأضافه لبعض كلمات تاشلحيت التي جمعها بباريس من أفواه الفرقة الإستعراضية "تاروا ن سيدي حماد أوموسى" الذين كانوا يجولون أوروبا لتقديم عروضهم. وقد نُشر هذا العمل سنة 1844، أي بعد احتلال الجزائر، في كتاب يمكن اعتباره مؤسسا للدراسات اللسنية حول هذه اللغة، دون أن يميز فيه المستشرق بين اللهجتين. ويكون بذلك أول من أحس بانتماء اللهجتين للغة واحدة. لكن في نفس الوقت يعتبر أيضا أول من ألصق بها وصفا قدحيا حين اعتبرها "لغة فقيرة"، ولا تتوفر على

معجم للتعبير عن الأفكار المجردة، وبذلك فهي في نظره مجرد "بقايا أداة تواصلية لشعب بدائي".(Ould Braham, 2003, 244).

بدخول الفرنسيين لشمال افريقيا، واعتمادهم على البحث العلمي، قبل التدخل العسكري، كانت اللهجات المستعملة من طرف السكان - أمازيغية كانت أو عربية - موضوع دراسة. وفي هذا الاتجاه كانت الأمازيغية على كثرة تنويعاتها موضوع دراسات معمقة شملت أهم مجالات البحث اللسني الموجود آنذاك، وإن كانت لم تحظ كلها بنفس درجة الاهتمام. فالقبائلية وتاشلحيت إلى جانب بعض لهجات الطوارق نالت النصيب الأكبر من الاهتمام، تليها أمازيغية الريف والأطلس المتوسط. كما تمت دراسة بعض اللهجات الأقل أهمية من حيث عدد الناطقين بها، كأمازيغية موريتانيا وتونس ومصر. ومع تطور البحث اللساني الأمازيغي، تتأكد فكرة وحدة اللغة الأمازيغية، ويكتشفها بعض الأمازيغ أنفسهم الذين سمح لهم العمل مع الإدارة الفرنسية بالتنقل خارج منطقتهم الأصلية والتعرف على أمازيغية المناطق الأخرى. فهذا سعيد بوليفا القبائلي (الجزائر) يزور دمنات المغربية ليكتشف التقارب الكبير بين اللهجتين، ويكتب عن ذلك (Boulifa, 1908). والشيء نفسهُ سيقوم به سيد كاوي عن لهجتي تاشلحيت وتامازيغت المغربيتين (Kaoui, 1907). أما العائلة الفرنسية باسي بباحثيها الثلاث (روني، وأندري، وهنري) والمعروفة في مجال البحث اللساني والأدبي بالجزائر، فقد ساهمت سنين قبل توقيع معاهدة الحماية في توجيه اهتمام الباحثين إلى أمازيغية المغرب، باعتباره، حسب خلاصات فرانسي نيكولا (François, 1953) المهتم بأمازيغية موريتانيا، أكثر البلدان حفاظا على اللغة الأمازيغية. ومنذ اكتشاف التنويعات اللغوية لأمازيغية المغرب، حققت الدراسات اللسانية في هذا الميدان قفزة نوعية. وقبل سنتين من استقلال المغرب سيعلن الباحث أندري أدام: "لا توجد إلا لغة أمازيغية واحدة من واحة مصر إلى سوس ومن البحر الأبيض المتوسط إلى النيجر" (Adam, 1954, 25-31).

إذا كانت الدراسات حول الأمازيغية بالنسبة لباحثي الفترة الكولونيالية قد أثبتت وحدة وحيوية هذه اللغة، وسعى بعضها لإرجاعها لأصول أوروبية، فإنها في نفس الوقت أشارت لتراجع استعمالها، وتكهنت لمستقبلها المرهون بمدى تشبث الأمازيغ بلغتهم، أو برغبة سياسية من طرف حاكم يريد تطويرها أو ظهور أديب كبير يغير مجراها أو نظام فيدرالي يضمن للجهات الأمازيغية حقها في تطوير لغتها (Montagne, 1924, 350)، وما عدا ذلك يمكن للأمازيغية أن تنقرض.

ب. الأعراف الأمازيغية

شكلت القوانين العرفية الأمازيغية مادة دسمة للدراسات والأبحاث الكولونيالية منذ 1830، باعتبارها من أهم خصائص المجتمعات الأمازيغية، ولأهميتها في تنظيم البنيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للقبائل الأمازيغية، وتميزها بالتعدد والتنوع من منطقة لأخرى، مع

اختلافها البيِّن عن مقتضيات الشريعة الإسلامية، رغم أن الأمازيغ مسلمون منذ 14 قرنا. ولذلك كانت هذه الأعراف موضوع دراسة منذ السنوات الأولى للاستعمار الفرنسي بالجزائر من خلال دراسة هانوتو ولوتورنو حول أعراف منطقة القبائل (Hanoteau et Letourneau, 1893). أما في المغرب، فقد كشفت الدراسة العميقة لهذه الأعراف عراقتها وتشبث القبائل بها، مما فرض على الإدارة الفرنسية، في إطار مقتضيات عقد الحماية القاضي بضرورة احترام تقاليد المغاربة، التفكير في أخذ هذه الأعراف بعين الاعتبار في كل سياسة تروم تنظيم مجال العدل والقضاء في المملكة الشريفة. في هذا الاتجاه اتخذت الحماية الفرنسية عدة إجراءات، وأصدرت قوانين؛ كان أولها سنة 1914، وأهمها "ظهير 16 ماي 1930 المنظم للعدالة في المناطق ذات الأعراف الأمازيغية؛ التي لا تحتوي على محاكم شرعية"، المعروف إعلاميا ب"الظهير البربري". ويعتبر كتاب ألان بلانتي لسنة 1952، والموسوم ب"إصلاح العدالة المغربية: العدالة المخزنية والعدالة الأمازيغية" من أهم الدراسات حول هذا الموضوع لأنها تلخص تطور المنظور الفرنسي لنظام العدالة بالمغرب طيلة فترة الحماية الفرنسية بالمغرب، وكيف نجحت الإدارة الفرنسية من خلال إجراءات عملية في الانتقال بأنظمة العدالة بالمغرب من حالة التعدد إلى حالة تتجه نحو التوحيد.

لقد سمح التواجد الفرنسي في شمال إفريقيا بتسهيل التنقل بين مناطق كانت إلى عهد قريب منعزلة بعضها عن بعض وصعبة الوصول، في الغالب، بسبب غياب الأمن، الشيء الذي وفر من جهة إمكانية القيام بأبحاث مقارنة سمحت من جهة باكتشاف وحدة اللغة الأمازيغية، ومن جهة أخرى وجود عمق انثربولوجي وتاريخي مشترك بين مختلف مناطق شمال إفريقيا، رغم الأحكام السلبية، وأحيانا القدحية، اتجاه الأمازيغية، التي نجدها متضمنة في ثنايا هذه الدراسات.

رابعا : الاستشراق وبداية إدخال الأمازيغ في المجال العربي، أو مسلسل شرقنة الأمازيغ

في كثير من الأحيان لا يعكس الانتماء الهوياتي، فرديا كان أو جماعيا، ما يرتضيه الفرد لنفسه، ففي كثير من الأحيان يفرض عليه الآخر هوية ما؛ أنتجت في سياق تاريخي وايديولوجي معين، وبعد قرون من التداول تترسخ لدى المعني بالأمر، ويجد نفسه متبنيا لهذه الهوية، بل ويدافع عنها باستماتة. ذلك ما نستشفه أثناء تتبعنا للمسار التاريخي الطويل الذي جعل شمال إفريقيا ومعه ساكنته الأمازيغية تدخل ضمن فضاء عام ألصقت به "الهوية العربية". فالأمر لا يعدو أن يكون انعكاسا لنظرة الغرب (أوروبا) اتجاه مجال خلقه بنفسه، وسماه "الشرق". ومن كثرة انجذابه نحوه والاهتمام به وضع له علما سماه "الإستشراق"، وباحثين يسمون ب"المستشرقين". فما علاقة الشرق بالأمازيغ وبالهوية العربية؟

لنقل إذن أن الشرق لا يمكن أن يكون إلا وجهة جغرافية، مقارنة مع الغرب والشمال والجنوب. وهذا يعني أن لكل جهة شرقها. فعن أي شرق نتحدث؟ في حالتنا هذه، فقد الشرق معناه

الجغرافي، وخلق جدالا بين الباحثين، خاصة الأفارقة، الذين تفاجئوا بإقحام بلدانهم (إثيوبيا مثلا) في الشرق. وهو ما جعل الباحث ألان رواد يقترح عدم إعطاء أي مضمون جغرافي لكلمة "الشرق" (Rouad, 1999). وبالتالي فهو شرق لا يوجد إلا في مخيلة الغرب الذي خلقه حسب تعبير ادوارد سعيد (Saïd, 1980). لقد خلق الغرب "الشرق" كنتيجة حتمية لتطوره الصناعي والفكري والعلمي الذي ولد لديه الإحساس بالقوة مما جعله يضع نفسه مركزا للعالم. وسمح لنفسه بتصنيف باقي المناطق بناء على معايير حددها بنفسه. فالشرق الذي فقد مضمونه الجغرافي أصبح مرادفا ل"البعيد" و"الأجنبي" و"الغرائبي" ولكل ما هو "مختلف" عن الغرب، والذي يعني بالضرورة "متخلف".

لنبدأ فقط منذ العصر الوسيط الأوروبي حيث كانت كلمة "الشرق" تحيل أولا على جزء من القارة الآسيوية فقط، خاصة المناطق التي اكتشفها بعض الرحالة كالمحيط الهندي والصين وبلاد فارس، واستقدموا منها بعض الهدايا التي أثارت اهتمام ملوك فرنسا، الشيء الذي دفعهم لإرسال مزيد من الرحالة والبعثات والتجار والمبشرين لاستكشاف هذه المناطق. من هذا المنطلق، وابتداء من القرن 12 بدأ المخيال الأوروبي ينسج الصور الأكثر غرائبية عن هذه المناطق التي كانت دائما تثير الغرب منذ العهد الإغريقي. وبمجيء الغزوات الماغولية أو التتارية على أوروبا والقادمة من هذه المناطق، ازدادت الرغبة الأوروبية في التقرب من هذه الشعوب. وكلما ازدادت معرفتهم ازداد الانبهار بهم، مع الإحساس الدائم لدى الغرب بتفوقه الصناعي، وحفاظ هذا الشرق بأصالته وعذريته. وازداد الانبهار بهذا الشرق لكونه مهد الديانات السماوية، مع نوع من التوجس منذ مجيء الإسلام الذي حل مكان المسيحية في العديد من المناطق، وما نتج عن ذلك من صراع مرير بين المنتمين للديانتين، خاصة خلال فترة الإمبراطورية العثمانية التي سيطرت لمدة 4 قرون على جزء مهم من آسيا، وأجزاء كبيرة من ضفتي البحر الأبيض المتوسط إلى الحدود المغربية الجزائرية.

لقد أدى الاهتمام المتزايد للغرب بالشرق إلى الانتقال من فترة اللامعرفة والاستكشاف إلى فترة إنتاج خطاب علمي حول هذه المناطق من طرف المستشرقين، خاصة أواخر القرن 18. من هنا بدأ الاهتمام بلغات هذه المناطق كالعبرية والسرياك الضروريتين لفهم الإنجيل ثم العربية لفهم القرآن. فبدأ الشرق في عيون الغرب يتسع ولم يعد يعني ما يعنيه في البداية بل ضم جزءا آخر من آسيا وسمي بالشرق العربي، لتواجد الإسلام والعربية. كما سيبدأ الخلط بينهما، فكل مسلم عربي وكل عربي مسلم (Redouane, 1988, 7). وإلى حدود الآن لم يخرج الشرق بعد من القارة الآسيوية، لكنه لن يتوقف عند هذا الحد، إذ سيمتد، ودائما في نظر الغرب، حيثما وجد الإسلام والعربية، أي شمال إفريقيا تحث اسم الشرق العربي.

بعد فترة طويلة من تخيل الغرب للشرق المحافظ على "نقائه" و"أصالته" و"عذريته"، ستكون حملة نابوليون بونابارت على مصر سنة 1798 أول اصطدام حقيقي بين الاثنين. وسينتج عنه إحساس الغرب بأن لقاءه بالشرق لا يؤدي إلا لعصرنة الشرق وفقدانه لأصالته، وهو ما سيدفعه للبحث عن ما تبقى من الشرق في جهة الغرب؛ أي الجزائر التي بدورها ستفقد طابعها الشرقي منذ احتلالها من طرف فرنسا، ليبقى المغرب آخر ملجأ للشرق كما يريده الغرب؛ أي ذلك المكان الذي يعيش في ماضيه البعيد وأصالته العريقة وكأنه لا يتحرك منذ قرون، ولم يصله أي تأثير للحضارة الغربية العصرية. وهذا ما نستنتجه من كتابات الرحالة الفرنسيين الذين زاروا المغرب قبيل الحماية الفرنسية، والذين عبروا بكل وضوح عن خوفهم من فقدان آخر معاقل الشرق كما يريده الغرب.

لقد أدى اهتمام الغرب بالشرق إلى الاهتمام بلغاته. وهكذا، وابتداء من القرن 16، سيبدأ وضع إرهاصات "الإستشراق العلمي"؛ حيث ستجد اللغة العربية، باعتبارها إحدى لغات الشرق، مكانا ضمن اللغات المدرسة في كبريات الجامعات الفرنسية خاصة في "كوليج فرنسا". كما عمد ملوك فرنسا إلى الاستعانة بمترجمين يتقنون اللغات الشرقية وخاصة العربية. ويتم أيضا تعيينهم كسفراء لفرنسا في بلدان الشرق، وسيؤسس معهد خاص باللغات الشرقية، ضمنها العربية، هو "المدرسة الخاصة للغات الشرقية" سنة 1795 الذي سيصبح فيما بعد "المعهد الوطني للغات والثقافات الشرقية". ولم يبدأ في الاهتمام بالأمازيغية إلا سنة 1913، معتبرا إياها من اللغات الشرقية، ولا زال إلى اليوم يحمل نفس الإسم، ويعطي شواهد في الأمازيغية من الإجازة إلى الدكتوراه. وحسب نفس النظرة فقد أصبح الأمازيغ من الشعوب الشرقية كما أن لباسهم وأكلهم وفنونهم كلها شرقية وعربية. ومن هنا نفهم لماذا لم تكن الدراسات الأمازيغية طيلة فترة الاستعمار الفرنسي إلا جزءا من حقل عام يسمى "الدراسات الاستشراقية".

إن الموقع الجغرافي للمغرب الكبير المتواجد بأقصى شمال إفريقيا، والغير البعيد عن أوروبا، والمستقبل لمؤثرات الشرق، جعله موضوع تصنيفات مختلفة، كل حسب زاوية رؤيته. وهذا ما أشار اليه فوك فيلياس سنة 1937 حين قال عن المغرب بالنسبة للمشارقة، أي العرب، فالمغرب في أقصى الغرب، حيث تغرب الشمس، وبالنسبة لنا نحن الغربيون فالمغرب، على عكس ذلك، امتداد للشرق (Phog, 1937, 36).

يمكن القول إذن بأن "شرقنة" شمال إفريقيا، ومعها سكانها الأمازيغ، ثم إدخالها في المجال العربي، بعد خلط الغرب للإسلام والعربية، حصلت عبر سيرورة تاريخية طويلة تحكم فيها الغرب من خلال نظرته للعالم، عبر إنتاج معايير معينة للتصنيف تسمح له بتبوء مكانة المركز. كما أن الأمازيغ كموضوع للدراسة تحكمت فيه خلال قرنين من الزمن عوامل عدة جعلتهم يصنفون من منظور

الغرب نفسه ضمن إطارات هوياتية مختلفة (الآخر المختلف بالنسبة للغرب، جزء من الشرق الغرائبي، مسلمون ثم عرب)، تعكس بنفسها تطور شروط إنتاج المعرفة بالغرب. ولذلك انتقلت المعرفة المنتجة عن الأمازيغ من مرحلة الأفكار الانطباعية المرتبطة أساسا بالرحالة، وظروف زيارتهم لشمال إفريقيا إلى مرحلة اللقاء المباشر، بعد احتلال فرنسا لأراضيهم؛ حيث حاجة السلطة للمعرفة، فأصبح العلم أداة للهيمنة ولأجل ذلك ظهرت مؤسسات علمية بدعم وتمويل رسمي لإنتاج معرفة أخرى تصنف نفسها ضمن الأبحاث الأكاديمية وتستثمر سياسيا لصالح الهيمنة الاستعمارية.

المراجع:

ADAM, A., 1954, « Races et religions, Berbères et Arabes. Musulman et Juifs », *Encyclopédie mensuelle d'Outre-mer*, 54, numéro spécial : *Maroc*.

AGERON, Ch.-R., 1968, *Les Algériens musulmans et la France (1871-1919*), Tome premier, Paris, Presses Universitaires de France.

AL ABBASSI, Ali Bey, 2008, *Voyage au Maroc en 1803*, France, Coda.

BEL, A., EISENBETH, M., 1937, « Les principales races de Algérie », *L'encyclopédie coloniale et maritime*, Fascicule 9.

BRAHIMI, D., 1978, *Opinions et regards des Européens sur le Maghreb aux XVII*^{e} *et XVIII*^{e} *siècles*, Alger, SNED.

BOULIFA, S., 1908, *Textes berbères en dialecte de l'Atlas Marocain*, publications de l'École des Lettres d'Alger, XXXVI, Paris, Leroux.

BURKE E., 1978, « La Mission Scientifique au Maroc, Sciences sociales et politique dans l'âge de l'impérialisme », Actes de Durham, Recherches récentes sur le Maroc moderne, 13-15 juillet 1977, *Bulletin économique et sociale du Maroc*, Rabat.

CAILLE, R., 1985, *Voyage à Tombouctou* II, Paris, la Découverte.

DE PARADIS, V., 1844, *Grammaire et dictionnaire abrégés de la langue berbère*, Revus par Amédée Jaubert, Paris, Imprimerie Royale.

Description de l'Égypte pendant l'expédition de l'armée française, publié par les ordres de Sa Majesté l'empereur NAPOLÉON le grand, Paris, Imprimerie impériale puis royale, 1809-1828.

Exploration scientifique de l'Algérie pendant les années 1840-1841-1842, Sciences historiques et académiques, Paris, Imprimerie royale.

FAIDHERBE, Le Général, 1874, *Instructions sur l'anthropologie de l'Algérie et instructions particulières par le Docteur Paul TOPINARD*, Paris, Typographie A.

FRANCIS, N., 1953, *La langue berbère de Mauritanie*, Mémoires de l'Institut français de l'Afrique noir, Ifan – Dakar.

HANOTEAU, A., LETOURNEUX, A., 1893, *La Kabylie et les coutumes kabyles*, Paris, Augustin CHALLAMEL, 2e édition.

KAOUI, C., 1907, *Dictionnaire français tachelhait et tamazir't* (dialectes berbères du Maroc), Paris, Ernest Leroux.

LEIMDORFER, F., 1993, *Discours académique et colonisation*, thème de recherche sur l'Algérie pendant la période coloniale, Paris.

MONTAGNE, R., 1934, « La politique berbère de la France », Reprinted from "Journal of the Africain Society".

MOULIERAS, A., 1895, *Le Maroc inconnu, exploration du Rif (Maroc septentrional*), Paris, Librairie coloniale et africaine.

OULD-BRAHAM, O., 2003, *Masquery et les études linguistiques berbères*, Thèse de doctorat, EHESS Paris.

PENZ, Ch., 1944, *Les captifs français du Maroc au XVIIe siècle*, (1577-1699), Publications de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, Rabat, Imprimerie Officielle.

PLANTY A., 1952, *La réforme de la justice Marocaine : la justice Makhzen et la justice berbère*, Paris, Librairie générale de droit et de jurisprudence.

POTOCKI, J., 1997, *Voyage dans l'empire du Maroc*, fait en l'année 1791, Paris, Maisonneuve et Larose.

PHOG, Ph., 1937, *Le Maroc vu de Paris*, Paris, Larose.

ROUAD, A., (textes réunis par), 1999, *Les orientalistes sont des aventuriers, Guirlande offerte à Joseph Tubiana par ses élèves et ses amis*, Saint-Maur, Sépia.

RENAN, E., 1873, « Exploration scientifique de l'Algérie : La Société berbère », *Revue des deux Mondes*, Tome CVII.

REDOUANE, J., 1988, *L'Orient arabe vu par les voyageurs anglais*, Alger, Entreprise national de livre.

SAÏD, E., 2005, *L'orientalisme. L'Orient créé par l'Occident*, Paris, Seuil.